

حازم غراب يكتب: سأظل أكرر: حركة لا تشيخ



الأربعاء 13 مارس 2019 04:07 م

تناقشت عبر الفيسبوك مع ثلاثة من الباحثين غير الأمنيين وغير الشائنين للإخوان، دار النقاش أو التكاثر حول فرضية وضعها وصدقها باحث يزعم أن الإخوان حركة شاخت فكريا وقيادة.

وباعتباري واحدا من الباحثين المتابعين للحركة من الداخل، أستشعر نوعا من التعسف في الحكم، وربما قصورا في منهج البحث. الرجل طبق نوعا من القياس على مآلات الأحزاب الشيوعية والاشتراكية والاتحاد الاشتراكي العربي. أعتقد مبدئيا أن قياس حركة إسلامية بوزن الإخوان على تلك التنظيمات ليس أمرا علميا. ثمة فوارق أو مسافات كتلك التي تبعد الأرض عن السماء. وقديما وصفت أنواع من القياس غير الجيد بالفساد، أو قيل قياس مع الفارق.

إن الظاهرة الإسلامية، بتنوع أطيافها، كالشجر الوارف المتجدد بطبعه وبطبيعته. الثوابت والأحكام الربانية القرآنية المصدر، والسنية الشرح والتفصيل، لا تشيخ، وهي أيضا غير قابلة للتغيير أو الإضافة على يد البشر؛ فلا اجتهد مع النص. أما غير الثوابت فالاجتهاد فيها أمر واجب وحتمي لمسيرة التطور. ولعل رد النبي صلي الله عليه وسلم على من سألوه عن تأبير (أي تلقيح) النخل، دليل على ضرورة البحث والتطوير: الرد النبوي هو كما نعلم أتم أدري بشئون دنياكم.

وأظن أن جوهر الفكر التنظيمي الإسلامي ذو طبيعة شبه ثابتة، لأن وسائله ومقاصده محدودة ومحددة. إنها:

1- جماعية العمل الدعوي (أو بلغة العصر أفضلية العمل المنظم كفريق، حتى تحت الضغط).

2- وانتخاب القيادة دوريا.

3- وشورية صنع القرارات.

4- الأخذ بيد العباد إلي خيري الدنيا والآخرة عبر منهج الله تعالى وابتغاء مرضاته.

لقد كانت الوحدة أو الخلية التنظيمية الصغرى منذ السيرة الحركية للنبي صلي الله عليه وسلم هي العشيرة. وقد تحولت اسما عند الإخوان إلى الأسرة. مضاعفات الأسرة تنظيميا ليست تهم فيها المسميات، كتيبة كانت أو مخيما. وقد نقل لنا مؤخر الدكتور على عبد الحليم أحد كبار التربويين الإخوان نقاشا بشأن الأسرة في التنظيم الإخواني، تحول إلي تحدي عدد من علماء الاجتماع المسلمين في أمريكا. كانت المناسبة انتقاد أولئك العلماء قدم وتاريخية الأسرة الإخوانية كوحدة تنظيمية أولي ومحض تربوي. قيل لأولئك العلماء إذن فلتخلوا إلى أنفسكم يومين أو ثلاثة لعلكم توجودون لنا بديلا. عادت المجموعة بخفي حنين وأقرت بفشلها في إيجاد بديل.

التنظيم إذن لا ولن يتغير كثيرا، ولن يشيخ أو يهرم أو يتجاوز الزمن. وبالمناسبة قال صحفي ياباني كبير قبل نحو أربعة عقود إن اليابانيين عقب هزيمتهم في الحرب العالمية الثانية وتدمير بلدهم، اعتمدوا لإعادة البناء، نظاما يشبه نظام الأسرة الذي ابتدعه حسن البنا في تنظيم الإخوان عام 1928

لقد استعصى التنظيم الإخواني على من استهدفوا هدمه أو اختراقه طيلة أكثر من ثمانين عاما. وكان من حاولوا ذلك أعتى أجهزة الاستخبارات والقمع محليا وإقليميا ودوليا. إنه نفس الاستعصاء أو المنعة التي حالت دون تمكن قريش وامبراطوريتا الفرس والروم من دعوة الله ورسوله صلي الله عليه وسلم.

وعلي الصعيد الحركي الميداني أقول إنني واحد ممن عايشوا مطبخ الإخوان السياسي والإعلامي، عقب نحو ثلاث سنوات في مطبخ السلطة الساداتية. وقد توصلت إلى عكس ما انتهى إليه الباحث المجتهد القائل بشيخوختهم. لعل من أهم الأدلة الحية على تجدد وديناميكية وشبابية حركة الإخوان، هو تلك الأجيال التي تسلمت القيادة في النصف الثاني من السبعينيات فأبدعت وأبنت. وعلى مدى الثلاثين سنة العجاف من حكم المخلوع مبارك توارثت أجيال ماهرة دءوبة الرأية في كنف الجيلين القديم والوسيط. لو حل محل المنتجات الحركية الإخوانية تحليلًا علميًا ربما وقف على ما وقفت عليه.

خذ أمثلة العمل بين الطلاب ثم المهنيين ثم أساتذة الجامعات، ثم العمال والفلاحين، وأخيرا العمل الخيري التكافلي المفتوح وسط المجتمع ككل، بعدما حاصرت السلطة القمعية وأغلقت كل المنافذ المؤطرة. لقد كان متوسط أعمار من أنجزوا هذه المنتجات الحركية إضافة إلى نجاحات البرلمان وبعض المجالس المحلية لا يزيد كثيرا على الأربعين.

ولو بحث الباحثون فيما أنجزه من شاركوا من الاخوان الشباب في ثورة يناير 2011 فسوف يكتشف أن متوسط أعمارهم لا يتعدى الخامسة والعشرين. أما من يتطوعون (حاليا) في الشارع بالتنظيف والصيانة وخدمة الناس في الريف والحضر بلا كل ولا ملل، فهم مئات الآلاف من الشباب والرجال والنساء والكهول.

من أراد دليلا فليدقق النظر في المليونيات التي دعا إليها الإخوان، والصور موجودة وسهلة الاسترجاع. ليت باقي التنظيمات اليسارية والليبرالية والقومية والأحزاب الجديدة ترينا من أنفسها عطاء بخلاف الكلام والشعارات.

إن الحركة الإخوانية تخطئ وتصيب فهي، قيادة وصفا، بشر من البشر، يصيبهم ما يصيب غيرهم في المجتمع من أمراض. لعل أهم ما يميز الإخوان عن سواهم ممن تدهمهم الأمراض هو الالتزام قدر الطاقة بمنهج الشوري وعدم التضحية بالثوابت العقدية والعبادية في سبيل الدنيا. إن هذا الالتزام يشبه في رأبي المتواضع حرص الإنسان على وسائل الوقاية قبل العلاج، وإذا داهمه المرض يهرع فوراً إلي الطب والدواء، ويرفع يده إلي السماء.

** هذا المقال سبق لي نشره عقب ثورة يناير ولا زلت مصرًا على كل معنى فيه بعد الانقلاب وتبعاته البشعة على كل مؤسسات وكيانات الدولة المصرية وعلى قوتها السياسية الأكبر.

